الفصل الثالث عشر

الحرب-المقاومة-الجهاد-الإرهاب

لم يعان إقليم فى العالم، قط، من التدخل المكثف والمستمر من قبل الغرب مثلما عانى إقليم الشرق الأوسط. ويرجع ذلك لأسباب عديدة منها : قربه الجغرافى من الغرب — ذلك الغرب الذى اتسم لاحقا بنزعات توسعية فائقة، تمتع الشرق الأوسط بموارد هائلة للطاقة قد أغرت الغرب بما لها من أبعاد وتأثيرات مالية كبيرة، موقعه الاستراتيجى الجيوبوليتيكى العالمى، عبر الزمان، كملتقى طرق بين الشرق والغرب. ولقد رأينا فى الفصل السابق ما كان للكولونيالية، والإمبريالية، والإمبريالية الجديدة من آثار على امتداد قرون عديدة، وما اتسم به الحاضر من وطأة التدخل الأمريكى فى شئون الشرق الأوسط.

إن الغضب المتزايد، وكذا الإحباط المتراكم، وتزايد معدلات العنف الراديكالى الذى ولده هذا التدخل عبر التاريخ يعد أمرا ماثلا للعيان. ولعل السؤال لا يكون : كيف وقعت أحداث الحادى عشر من أيلول/سبتمبر ٢٠٠١، بل الأحرى : لماذا لم تقع تلك الأحداث قبل ذلك اليوم؟ وبما أن الجماعات الراديكالية بالشرق الأوسط قد باتت تعبر عن مظالمها فى زمننا المعولم، ففيم العجب من قيامها بتوجيه ضرباتها إلى قلب الغرب المعتدى؟ إذاً، لا يستدعى الأمر كبير عناء لكى يستشرف المرء ضرباً من المقاومة الارتدادية المكبوتة، ونوعا من ردة الفعل الحادة، بل العنيفة إزاء الممارسات الغربية طويلة المدى. وعند هذا الحد، يكون من المخادعة أن يلتفت الغرب حوله ليسأل فى دهشة : ما الخطب الذى حل بالعالم الإسلامى، أو بالإسلام لأن يشهد الغرب كل تلك الاستجابات وكذا فى ردات الفعل العنيفة من المسلمين؟ فما هى إلا بلادة وتجاهل متعمد من الغرب ألا يقر بآثار سياساته عبر القرنين

الماضيين أو يزيد فى تحفيز ردات الفعل تلك من قبل العالم الإسلامى.

كذلك، يجب ألا يثير الالتجاء إلى استخدام العنف أدنى دهشة. فحين تسوء الأمور وتتدهور الحال، من الذى يعمد إلى الاستجابة أولا، المعتدلون أم الراديكاليون؟ وفى هذا الإطار، يبدو "أسامة بن لادن"، وكأنه نذير الشؤم – إذ تشير ممارساته العنيفة المبكرة إلى أن الأحوال قد ساءت كثيرا فى إقليم الشرق الأوسط. فإذا كان الراديكاليون قد هبوا للدفاع عن قضاياهم للمرة الأولى، فإلى أى مدى تقف القوى الأكثر اعتدالا والتى تشاركهم الهواجس والشكوك ذاتها؟ إننا لندرك أنه يوجد تعاطف ضمنى عام، إن لم يكن تأييداً حقيقياً لأسامة بن لادن فى الشرق الأوسط، حتى ولو لم تغتفر ممارساته بالكلية.

إذاً، فإنه لا يستقيم، من وجهة النظر التحليلية، الزعم بأن الإسلام أو

الأيديولوجيا الراديكالية هما المصدر الرئيسى لتلك المقاومة. وبالرغم من أنه لا شك فى أن العوامل الدينية والأيديولوجية تضطلع ببعض دور فى بلورة المقاومة واستقطابها، وكذا فى ردات الفعل العنيفة، إلا أنها ليست المصدر الحقيقى للمشكلة. فهل نمتلك رفاهية الخلط بين المحرك، وبين المشكلة؟ أم هل لنا، بالأحرى، أن نفترض أن ما عاناه المسلمون على أيدى الغرب، على مدار قرون عديدة، لم يكن ليعنى الكثير إذا ما كان سكان الإقليم من غير المسلمين؟

وبالفعل، فإذا ما كانت مشاعر الاستياء وعدم الرضا فى الشرق الأوسط تبحث عن محرك للتعبير عنها، فلم لا يكون ذلك المحرك هو الدين ... "الإسلام"؟ وكما رأينا من قبل، فقد كان الدين والهرطقة رايتين خالدتين لسياسة المقاومة فى الشرق الأوسط منذ الأيام الأولى للمسيحية. إن الإسلام ليملى على أتباعه قدرا من التوقير والإذعان للسلطة، كما أنه يضفى نوعا من الشرعية على أولئك المؤمنين بعدالة قضيته – وهى، فى هذه الحال، الدفاع عن الأمة ضد التدخل الخارجى.

فإن لم يكن من خلال الإسلام، فوفق أى إطار، إذاً، سيبلور الشرق الأوسط مقاومته للغرب؟ وما عساها، إذاً، تكون صرخة الاستنفار؟ لقد رأينا كيف كانت القومية العربية بقيادة مصر الناصرية محركا لتلك المقاومة خلال خمسينيات القرن العشرين وستينياته، بيد أنه لم يكتب لها النجاح، ويذكر أن تحالفا عسكريا ثلاثيا شكلته كل من بريطانيا، وفرنسا، وإسرائيل قد سعى بالفعل للإطاحة بعبد الناصر أثناء أزمة السويس عام ١٩٥٦، كذلك، فقد سطع نجم الماركسية–اللينينة كمحرك أيديولوجى للمقاومة، لكنها لم تسفر عن شىء يذكر فى نهاية المطاف. إذاً، فالإسلاموية، بجذورها الضاربة فى أعماق الثقافة الإقليمية، وقدرتها على استنفار التأييد الشعبى تحت دعاوى "المصلحة الإقليمية" – هى المحرك الأيديولوجى الأكثر معاصرة، وحداثة، والأمضى فاعلية، وذلك فى المستقبل المنظور، على أدنى تقدير.

فعندما أرادت روسيا أن تعترض على سياسات العالم الخارجى إزاءها، ماذا

كان المحرك الذى اعتمدته لاستنفار التأييد العام؟ حين وجد ستالين نفسه تحت هجمات جيش الرايخ الثالث أثناء الحرب الكونية الثانية، كان يدرك تماما أن الماركسية-اللينينية لن تسعفه لاستنهاض مشاعر الروس للمقاومة. ومن ثم فقد لجأ إلى القومية الروسية عله يجد مخرجا ولكن دون جدوى، وأخيرا انتهى به المطاف، محاطا بمسحة من يأس، إلى التوسل بالكنيسة الأرثوذكسية ذاتها كقوة دافعة ومحرضة، كونها رمزا "لروسيا المقدسة". أما الإمبراطورية اليابانية، قبيل الحرب الكونية الثانية، فقد سعت إلى إيجاد محرك لاكتساب تأييد رعاياها لسياساتها التوسعية والإمبريالية فى آسيا، فتم التوسل بما للعقيدة الشنتوية من هالة قدسية، بل وببعض المعتقدات البوذية لاستمالة الروح اليابانية. وفى سريلانكا، قامت الأغلبية السنهالية ذات العقيدة البوذية فى قمعها للانفصاليين التاميل ذوى العقيدة الهندوسية – بالالتجاء إلى الرهبان البوذيين لاستنهاض التأييد السنهالى العام للحرب الأهلية بين الطرفين. كذلك، فقد سعى هتلر لاجتذاب تأييد الكنيسة لأغراض المجهود الحربى الألمانى. بل إن الولايات المتحدة ذاتها، فى زمن الحروب، تدفع الكنائس البروتستانتية، والكاثوليكية، والمعابد اليهودية لإقامة الصلوات العامة، والقداسات لإضفاء روح الشرعية على الصراعات القومية.

إذاً، وفى هذا السياق، سيكون أمرا يدعو للدهشة إذا لم يتم التوسل بالإسلام فى صراع الشعوب الإسلامية ضد الهيمنة الغربية – جنبا إلى جنب مع القوميات المحلية، إذ تعضد تلك القوى من بعضها البعض إزاء التهديد الخارجي.

فلا غرو، إذاً، أن تكون واشنطن معنية بكون الإسلام مستخدما كمصدر هام للمقاومة وردات الفعل العنيفة تجاه الممارسات العسكرية للولايات المتحدة. فهل تتوقع الولايات المتحدة، إذاً، ألا ينتفض الشرق الأوسط للمقاومة، بل يذعن لما تمليه الأهداف والمطامع الاستراتيجية الأمريكية؟ لا يمكن بحال أن يحدث ذلك، وإلا كان واضعو السياسات ومتخذو القرار بمنأى عن الحقيقة ومقتضيات الواقع (فالإمبراطورية، عادة، ما تكون بمعزل عن الحقيقة لإيمانها بأنها ذاتها تخلق

الحقيقة). لذا، فإذا تم اختبار المحرك ودراسته، الإسلام فى هذه الحالة، للوقوف على المثالب والمشكلات، كما لو أن الإسلام ذاته، بشكل أو بآخر، هو مصدر المشكلة المرتبطة بالمقاومة – لكان ذلك انحرافا عن لب القضية وجوهرها. أم أنه من الحصافة أن ننكر حقيقة تأثر الآخرين كثيراً بما نقوم به من ممارسات بحقهم؟ إن ذلك، أيضا، ما يذهب الباحث السويسرى، "طارق رمضان"، إلى نعته "بأسلمة المشكلة".

وينحو "روبرت كابلان" إلى تبنى نهج يختلف قليلا، إذ يذهب إلى القول بأن المكون الإسلامى له ارتباط، على نحو أو آخر، بالقضية المثارة ... ويبدو طرحه فى هذا الشأن جديرا بالمتابعة :

"كان المستشرق، وعالم الإثنيات الأمريكى "تشارلتون ستيفنز كوون" قد كتب عام ١٩٥١ أن الإسلام قد أسهم فى تحقيق السعادة، والحياة الكريمة للملايين فى بيئة قاحلة مقفرة على امتداد أربعة عشر قرنا. فإلى جانب رسالته الصريحة الواضحة، فإن الطابع "الجهادى" للإسلام قد جعله عنصر جذب لأولئك المضطهدين. إن الإسلام هو الدين الوحيد الذى لا يأبه معتنقوه بالقتال، إذ هم مستعدون لخوضه. فالحقبة السياسية المتسمة بالتوترات، والضغوط البيئية، والحساسيات الثقافية المفرطة، والعشوائيات المنتشرة، وهجرات اللاجئين – لهى حقبة مهيأة، بالفطرة، لانتشار الإسلام وتوغله ... وهو الدين الأسرع انتشارا فى العالم المعاصر. (وبالرغم من أن الإسلام ينتشر فى غرب إفريقيا، إلا أن ذلك يتم عرقلته بضرب من التوفيقية الأرواحية، وهو ما يجعل المعتنقون الجدد أقل قابلية لأن يصيروا متطرفين مناهضين للغرب، بيد أنه يجعل إيمانهم أقل رسوخا وثباتا ... وهو الأمر الذى يضعف من فاعليته كمناهض للجريمة.

وتشير ملاحظات "كابلان"، بالفعل، إلى كون الإسلام صرخة استنفار ناجزة ضد التدخل الخارجى. ولكن لو لم يكن ثمة "إسلام"، لكان لنا أن نتوقع ردات فعل

عنيفة تصدر عن أية ثقافات رازحة تحت ظروف عصيبة مماثلة.

إن التغطية الإعلامية المتلفزة لأحداث الحادى عشر من أيلول/سبتمبر قد أفرزت انطباعات هائلة : فمدى جسامة العمليات المنفذة، ووحشيتها البالغة، وأعداد الوفيات، وألسنة النيران والدخان الأسود الناجم عن التدمير متصاعدا فى سماء صافية الزرقة لهو أمر لافت وصادم. على أن تلك الصور تشى بإيحاءات مختلفة تتباين بتعدد مشاهديها.

فبالنسبة للعديد من الأمريكيين، وكذا بعض المشاهدين الأوروبيين، فإن الرسالة واضحة جلية : ففيما تسعى الولايات المتحدة جاهدة لإرساء دعائم السلام فى ربوع العالم، إذا بها فجأة تتعرض لهجوم وحشى من قبل جناة مهووسين. إذاً، فالحدث يستدعى عقابا سريعا ورادعا لاستئصال شأفة المعتدين ليكونوا عبرة لمن عساه يراوده أدنى خاطر للقيام بعمل مشابه. فحقيقة الأمر، ما هى مثالب الثقافة الإسلامية – وبعض المنتمين إليها فى عداد الحلفاء – والتى قد تفرز أمثال تلك الممارسات الشنيعة المروعة؟ بعبارة موجزة، فإن التاريخ يبدأ فى الحادى عشر من أيلول/سبتمبر.

ولكن تظل أعداد غفيرة على امتداد العالم بأسره، بما فيه الغرب ذاته، قد قرأت المشهد بما احتواه من أحداث قراءة مختلفة بعض الشئ. فالهجوم كان، بالطبع، صادما، ووحشيا، ومأساويا بحق المدنيين الأبرياء الذين لقوا حتفهم خلاله. لكن لم يكن ذلك الهجوم ليمثل مفاجأة. فبتأمل السياسات الأمريكية فى الشرق الأوسط، والغضب الإسلامى المتصاعد على مدار فترة زمنية ممتدة بشأن العديد من القضايا، كان من المحتم، عاجلا أم آجلا، أن تثور فئة من المسلمين، وترد الكرة على من ابتدرهم بالعداء. فالتاريخ لا يبدأ فى الحادى عشر من أيلول/سبتمبر، ولكن كان هناك مقدمات استهلالية طويلة. إذ تغرى سياسات الولايات المتحدة الأمريكية بالمزيد من أمثال تلك الهجمات طالما ظلت تسعى إلى الهيمنة الدولية،

والتدخل السياسى والعسكرى، وطالما استمرت إقامة مستودعات لشحن مشاعر العداء ضدها. وعلى ما كان من جسامة وأهوال صبغت الأحداث، إلا أن الأمل قائم فى أن تكون تلك الهجمات ناقوس خطر لواشنطن عن مدى جسامة الموقف، وحتمية إعادة التفكير فى الأمر برمته. ويبدو هذا الرأى الأكثر شيوعا فى بلدان العالم المختلفة فيما عدا الولايات المتحدة الأمريكية.

عدالة القضية

يقرر الكثير من المسلمين، بمشاعر من الأسى، أن مجتمعاتهم مثقلة بمشاكل جسام. بيد أنه لا يساورهم أدنى شك فى شرعية موقفهم وعدالته فى مقاومتهم للهيمنة الغربية، بل وفى الرد بالمثل إذا ما تطلب الأمر ذلك. فبالنسبة للمسلم، أو أى امرئ آخر، ينهض الافتداء والتضحية بالحياة من أجل مطلب أو قضية بعينها دليلا ساطعا دامغاً على صدق القضية وعدالتها. إلا أن الربط ما بين الحرب والدين يثير مشاكل أخلاقية مركبة فى أعراف جميع الديانات الكبرى. وتعود جذور أعراف التفكير المسيحى بشأن الأسس الأخلاقية التى قد تبرر الحروب إلى القديس أوغسطين، على أقل تقدير، وتثير سؤالا يبدو عصيا على مقابلته بإجابة شافية : ما الذى يجعل الحرب عادلة؟ إن التفكير الأخلاقى الغربى التقليدى بشأن عدالة الحروب ينطوى على عنصرين مميزين، على أقل تقدير : أسباب خوض حرب ما، وأخلاقيات التعامل أثناء الحروب. كذلك، يرسى التفكير الغربى التقليدى معايير أخرى ترتبط بمدى إلحاح الحاجة إلى خوض حرب ما لو كان ثمة بدائل سلمية لتسوية النزاع، ومدى المعركة ونطاقها، وشرعية السلطة الداعية إلى الحرب، ومدى عدالة القضية التى يحارب من أجلها المرء، ومدى مناسبة حجم الدمار الذى تلحقه الحرب بالطرف الآخر ردا على نظيره الملحق بذلك الطرف، فضلا عن وضعية غير المشاركين بالحرب، والمدنيين، والمنشآت المدنية.

إن الحديث عن "أخلاقيات الحروب" يبدو من قبيل التناقض، حين يكمن الموت

والدمار فى صميم العمليات العسكرية ذاتها. وبطبيعة الحال، وعلى نحو مطلق، فإن إزهاق الروح، بصفة عامة، هو عمل لاأخلاقى. بيد أن الاعتبارات الأخلاقية والقيمية، فى وقت الحروب، تنحو إلى أن تكون نسبية فى كليتها : فإذا ما تحدثنا عن العدالة، يبقى السؤال: عدالة من؟ وماذا عن مدى التناسب؟ وما الحدود المقررة بشأن الجرحى أو القتلى من المدنيين؟ أى الطرفين على صواب، وإلى أى مدى يمتد ذلك الصواب؟! إن جميع البلدان، على مدار التاريخ، والتى قرعت أجراس الحروب لتزعم، بل لتكاد تؤمن بعدالة مطلبها وقضيتها فى مواجهة أعدائها الأشرار.

وتزداد حدة المأزق فى المجتمعات الديمقراطية. فإذا عمدت الدولة إلى قدر من الغموض فيما يخص "العنصر الأخلاقى" وذلك أثناء الحرب أو الصراع ذاته، فإنها، وقتئذ، ستثير مشاعر الكراهية فى صفوف محاربيها ورعاياها، وسينجم عن ذلك أن يصبح ما تزعمه من عدالة مطلقة لمطلبها أو قضيتها باهتا وغير ذى موضوع. لذا تعن الحاجة إلى أن يصبغ كل طرف مسعاه بأنه الحق المبين دون منازع، وأن الآخر هو "الشر المطلق". وتعمل وسائط الإعلام الحديثة على زيادة تعقيد المشكلة، إذ أتاحت للكافة إمكانية متابعة مجريات الحروب عن طريق المشاهدة التليفزيونية أو المتابعة عبر الانترنت تبعا لوجهات نظر متباينة. وقد عمدت الإدارة الأمريكية برئاسة جورج بوش الابن إلى فرض نوع من الرقابة الذاتية على وسائط الإعلام الأمريكية فيما يتعلق بتغطية الأحداث الدموية لحرب العراق. ولقد كانت القناة الفضائية العربية، "الجزيرة"، إحدى أهم مصادر الغضب والاستياء الأمريكى لقيامها، على نحو متواتر، بنقل تفاصيل الحرب من موقع الأحداث، والتصوير الحى لأثر القصف والعدوان على المدنيين فى تلك التخوم. وعادة ما كان الإعلام الأمريكى ينعت مشاهد القتلى من الأمريكيين، بل والضحايا من المدنيين بأنها "مسيئة وفاحشة" مستهدفا من وراء ذلك، ضمن أهداف أخرى، عدم رؤية الأمريكيين لها. كذلك، فإن الممارسات التى أدت إلى وقوع تلك الأحداث والمشاهد لهى "مسيئة وفاحشة" بالمثل. فمن السهولة بمكان أن تخاض الحروب طالما ظلت عواقبها التى

تطال البشرية ... نائية، ومغيبة، وتجريدية.

الجهـــاد

إن النظريات بشـأن "الجـهـاد"، والأدبيـات الكثـيـرة المتناولة له هي المكافئ الوظيفي لنظرية "الحرب العادلة" في المسيـحـيـة. وقد صيغ هذا المفـهـوم لإعطاء تعريفات وحدود بشـأن ممارسات المسلمين وسلوكهم أثناء الحروب. ولعل لفظة "الجهاد" هي اللفظة الأكثر إثارة للجدل والمشاعر، والتي يربطها الغرب بالإسلام في عـالم اليـوم. فلا يكاد يمـر يوم أو ليلة إلا ويتم اسـتـخـدام اللفظة، إمـا بواسطة "الجـهاديين" أنفسـهم، أو عن طريق منتـقـدي الإسلام. ويضيق صـدر الكثـيـر من المراقـبين مما يتداول عن جذور مـفـهوم "الجـهاد" أو مـدى اسـتخـدام اللفظة، إذ يؤمنون أنها لا تعدو إلا أن تكون تبريرا للطابع الشنيع والمروع للتحدي "الجهادي" لقوى السلام والاستقرار الغربية.

و"للجـهاد" أكثر من معنى في القرآن، وأحـاديث النبي محمد. فـجذر الكلمة في اللغة العـربية يعني "الجـهد" أو "القتـال" أو "الصـراع". وغـالبا مـا تسـتخـدم اللفظة لتعني نضال المرء وكفاحه ليحيا حياة خيرة فاضلة، وليعلي من شـأن القيم والمبادئ الدينية في معاملاته الحياتية، وليعمل على نشر الإسلام بدأبه الذاتي عن طريق أن يكون المرء مثالا وقدوة تحتذى، وكذا ليرسخ دعائم الإيمان. وفي هذا السياق، فإن لفظة "الجـهـاد" ترتبط لدى المسلمـين بإيحـاءات ومـدلولات دينيـة إيجـابيـة خـاصـة بتكريس حياة المرء سعيا لتحقيق الأمثلية والأفضلية. وهذا هو "الجهاد الأكبر" كما أشار إليه النبي محمد.

أما "الجـهاد الأصغر" فيشير، وفقا للنبي محـمـد، إلى ما يبذله المرء خلال المعارك الحربية، والتي يكون محـركهـا الأسـاسي الدفـاع عن الإسـلام والذود عن حياضه، وكذا حماية "الأمة الإسلامية" من أي خطر يتـهـددها. وبما أن الجماعة المسلمة الناشئة، والتي كانت تعاني حصـارا من قبل الوثنيين في مكة، قد عانت

انتهاكات عديدة من قبل أعدائها، فقد كان الدفاع عن تلك الجماعة صادرا عن آيات وردت بالقرآن، وأحاديث النبى محمد. بيد أنه ما أن استتب الأمر لجماعة المسلمين، حتى شرعت فى الدخول إلى مرحلة من التوسع العسكرى. وبينما كان الإسلام ينتشر، فقد واجه العديد من البلدان والإمبراطوريات التى اصطرع معها فى حروب لفرض السيادة والهيمنة على أقاليم عدة.

إن التشريع الإسلامى ليضع اشتراطات وقوانين مطولة بشأن قواعد السلوك والتعامل أثناء الحروب، منها ألا يتم استهداف النساء أو الأطفال، وأن يكون ثمة مناسبة وتكافؤ فى القوى، وألا يتم تدمير أو تخريب أية منشآت مدنية دونما مسوغ، وأن يكون نداء الحرب واستنفار الحشود صادرا عن إمام عادل أو من بيده سلطة شرعية تخوله ذلك، وأن الحروب التى لا تسترشد بهدى من تعاليم "الجهاد" وضوابطه هى حروب غاشمة وغير شرعية. ويضرب النبى محمد المثل حين يأمر المحاربين بألا "تؤذى امرأة، أو طفل، أو هرم، أو أى من أتباع الديانات الأخرى فى كنائسهم، ومعابدهم، وصوامعهم". ولقد تجادل "علماء الإسلام"، إبان العصور الوسطى، عن مدى شرعية استخدام المنجنيق ضد حصون الأعداء وقلاعهم. وقد ذهب عدد من العلماء إلى عدم مشروعية ذلك نظرا لما قد ينجم عن استخدام أمثال تلك الأسلحة من الأضرار بالمدنيين، وليس بالمتحاربين فحسب.

وكما تم انتهاك المبادئ الأخلاقية المسيحية فيما يتعلق بالحروب، فقد انتهكت نظيرتها الإسلامية كذلك. "فالدمار المتكافئ"، وهى لفظة أريد بها التلطف، قد أدى إلى إبعادنا عن "البعد الإنسانى" فيما يخص وفيات المدنيين أثناء الحروب – تلك اللفظة التى راجت وشاع استخدامها فى الولايات المتحدة الأمريكية. ففى أثناء الحرب الكونية الثانية، فإن إلقاء القنابل فوق مدينتى "هامبورج"، و"دريسدن"، الألمانيتين، واستخدام الأسلحة الذرية لأول مرة فى التاريخ، حين ألقت الولايات المتحدة القنابل الذرية فوق مدينتى "هيروشيما"، و"ناجازاكى" اليابانيتين – كان ذلك كله موجها ضد المدنيين فى استعراض للقوة أريد به الترهيب والترويع.

فكما أشار "فون كلاوسفيتز"، فإن الحروب وقودها العاطفة، والتى دائما ما تتجاوز أغراض الحرب ذاتها، والدافع وراء خوضها. فما أن يبدأ الصراع حتى تتصاعد حدة الكراهية فيما بين الطرفين ... فالوحشية تولد وحشية مضادة تصطرعان فى موجات تصاعدية لانهائية من العنف الأحمق الموتور.

وقد استخدم مصطلح "الجهاد" وفقا لدلولاته الأكثر حداثة فى العديد من المناحى الدنيوية، مثلما تم استخدام مصطلح "الحروب الصليبية" بمفهومها الغربى للدلالة على محاربة الجريمة أو الحملات ضد تعاطى المواد المخدرة أو الاتجار بها. إن نضال الزعيم الهندوسى "المهاتما غاندى" ضد الاحتلال البريطانى لبلاده قد أشير إلى كونه "جهادا". كذلك، فقد تم اعتماد المصطلح ذاته لنعت الحملة القومية للرئيس التونسى العلمانى الأسبق، الحبيب بورقيبة، والخاصة بالتنمية الاقتصادية فى بلاده. ولقد استخدمت بعض الحركات النسائية مصطلح "الجهاد"، وأطلقته على صراع المرأة فى سبيل تحررها وانعتاقها، واستخدمه آخرون للتعبير عن الصراع من أجل إرساء نظام أخلاقى واجتماعى عادل. بيد أن المصطلح قد استخدم، بادئ الأمر، لنعت ممارسات أولئك المدافعين عن "ديار الإسلام" ضد هجمات الغرب، وكذلك لنعت الممارسات العنيفة ضد العديد من البلدان "الغربية"، خاصة تلك الضالعة فى عمليات عسكرية على "الأراضى الإسلامية". بل لقد استخدم بعض الوهابيين، والسلفيين المهووسين المصطلح ذاته لتبرير انتهاكاتهم بحق المسلمين الشيعة.

وبمرور الزمن، أصبح الدفاع والهجوم يتناوبان، وأخذ مفهوم "الجهاد" يستخدم، على نحو واسع، للإشارة إلى الحرب ضمن دعايات المسلمين الحربية. وفى بعض الأحيان، شهدنا دولا إسلامية تحارب دولا إسلامية أخرى، ولم يكن نشر "الإسلام" ذا صلة بتلك الحروب. فالمهدى، الثائر السودانى فى القرن التاسع عشر، قد أطلق على ثورته ضد الإمبراطورية العثمانية "جهادا"، كما نادى بموت جميع الأتراك !! وبالمثل، فقد أعلن الوهابيون "الجهاد" ضد جميع المسلمين من "غير

الوهابيين". لذا، فقد استخدم مصطلح "الجهاد" سلبا وإيجابا على مدار عقود مديدة، ليجد رواجا فى عالم اليوم، إذ يتم اعتماده كمسوغ للمقاومة ضد القوى الغربية فى العالم الإسلامى.

إن بعض الجماعات الراديكالية المتطرفة قد انتحلت الآن ذلك "المفهوم القرآنى" حتى فى صراعاتها وحروبها ضد خصومها السياسيين المحليين أنفسهم داخل العالم الإسلامى، إلى الحد الذى ذهب إليه بعض الراديكاليين فى إعلانهم كون "الجهاد" الركن السادس للإسلام، جنبا إلى جنب مع أركانه الخمسة التى تأسس عليها. إذاً، فأيا ما كان الاسم، فجدير بنا أن نشير إلى تبرير القانون الدولى للمقاومة المسلحة من قبل الشعوب ضد القوى العسكرية الأجنبية الساعية إلى غزو بلادها واحتلالها.

أما مفهوم "الجهاد" فقد أصبح بالتوازى مع مفهوم "التدخل الغربى" قرينين متلازمين :فكلاهما قد خلق نهما للقتال ذاتى التعضيد، كل فى اتجاهه صوب الآخر، أو ضربا من الاعتماد التبادلى على العنف والوحشية، وكأنما يبرر أحدهما الآخر. وفضلا عن ذلك، فقد أضحت دراسة ظاهرة "الجهاد" صناعة محلية فى الولايات المتحدة الأمريكية، يقودها متشيعون مخلصون من كلا الطرفين، والذين يتجادلون بحماسة بشأن طبيعة الظاهرة/المشكل. وتسعى جل تلك الدراسات إلى الوقوف على بعض مثالب الثقافة الإسلامية، وثقافة إقليم الشرق الأوسط لتبرير الصراعات. لقد أضحى "الجهاد" مصدرا رئيسيا للمشكلة، لا تمثيلا لها أو تعبيرها عنها.

ولعل من نافلة القول أن نذكر أن الجماعات الراديكالية المتطرفة التى تعتمد العنف أسلوبا لها قد أساءت استخدام مصطلح "الجهاد"، جنبا إلى جنب مع تأويلاتهم المتطرفة لكل ما هو إسلامى لإشاعة روح الكراهية والعداء للغرب فى أوقات الصراع المشترك. وسوف نقوم لاحقا بمناقشة بعض عناصر ذلك الطرح.

فهل يعقل، إذاً، الإيمان بأنه لو لم يكن ثمة "جهاد"، أن يمتنع العالم الإسلامى عن القيام بحرب عصابات بحق الغرب؟ على أية حال، فقد كان هجوم الولايات المتحدة ضد نظام صدام حسين مهمة علمانية بحتة، كما كانت إرهاصات وبادرات المقاومة الأولى قد نبعت من قبل حزب "البعث"، والقوى القومية بما لا علاقة له ألبتة "بالإسلام" أو "الجهاد". إلا أن مفهوم "الجهاد" قد أضحى، فيما بعد ذلك، حجر الزاوية الذى ارتكنت إليه معظم ردات فعل المعارضة العراقية ضد اعتداءات الولايات المتحدة وغزوها للعراق. وهنا، أيضا، يجرى الخلط بين "الإسلام" كقاطرة ومحرك للصراع، وبين جذور المشكلة ذاتها.

السلطة العادلة وأسامة بن لادن

لقد طرح مفهوم "الجهاد" ثانية حين وطئت القوات الأمريكية أراضى المملكة العربية السعودية إبان حرب الخليج الأولى لتحرير الكويت من الغزو العراقى لها. وتزخر أدبيات الفقه والشريعة الإسلامية بآراء متباينة حول مدى مشروعية استعانة الحاكم المسلم، أيا من كان، بغير المسلمين للقضاء على مسلمين آخرين. وتكون أمثال تلك الاستعانة مقصورة على أحوال بعينها، كما تتطلب إبرام معاهدات ذات شروط صارمة محددة. ففى حالة المملكة العربية السعودية هذه، فقد وافق "العلماء" السعوديون، فى النهاية، على السماح للقوات الأمريكية باستخدام الأراضى السعودية وفقا لمدى مؤقت وصارم، وذلك لأغراض الدفاع عن المملكة ضد أى غزو محتمل من قبل العراق، على أن يفهم أنه يتعين على تلك القوات مغادرة المملكة حالما انقضت دواعى الأزمة تلك. إلا أن القوات الأمريكية لم تغادر المملكة بعد أن وضعت الحرب أوزارها، الأمر الذى اعتبره "العلماء" نقضا للمعاهدة وانتهاكا لشروطها، بيد أن معظمهم قد آثر السلامة فلم يثيروا أدنى احتجاج ضد حكومة بلادهم. إلا أن أسامة بن لادن والكثير من رجالات الدين، وكذلك المواطنين قد أثاروا الاحتجاجات، واحتلت تلك القضية حيزا كبيرا فى إحدى الموجات المبكرة من إدانات بن لادن، وشجبه للسياسات العسكرية الأمريكية فى المنطقة. فكما صرح بن

لادن خلال لقاء له مع روبرت فيسك "للجارديان" البريطانية، عام ١٩٩٦ :

"عندما جاءت القوات الأمريكية إلى المملكة العربية السعودية، بلد الحرمين الشريفين، كانت هناك معارضة شديدة لذلك من قبل "العلماء"، وطلاب الشريعة الإسلامية على امتداد المملكة ...

... إن المواطن السعودى البسيط يعلم أن بلاده هى أكبر منتج للنفط فى العالم، إلا أنه، وفى الوقت ذاته، يعانى ضرائب مرتفعة ويحظى بخدمات لا ترقى إلى مستو مقبول مرض – ويدرك البسطاء، الآن، ما يتردد على ألسنة "العلماء" أثناء خطبهم بالمساجد من أن بلادهم قد أصبحت مستعمرة أمريكية ... لذا، فهم يبذلون قصارى جهدهم ولا يألون وسعا لإجلاء الأمريكيين عن أراضيهم...

وفى النهاية، سيأتلف جميع المسلمين فى النضال ضد أمريكا ... وأنا أومن أنه، إن عاجلا أم آجلا، فسوف يرحل الأمريكيون عن أراضى المملكة، كما أومن بأن الحرب المعلنة من قبل الولايات المتحدة ضد الشعب السعودى تعنى الحرب ضد جميع المسلمين فى كل مكان. إن مقاومة الاعتداءات الأمريكية ستنتشر فى العديد من البلدان الإسلامية".

هنا، فإنه لا يتعين علينا أن نتفق وتفسير بن لادن للأحداث كى ندرك كونه يوجه اتهاما قانونيا يجب أن يتبناه الشعب السعودى، والشعوب الإسلامية الأخرى فى رفض التدخل الأجنبى غير المشروع فى السعودية. على هذا النحو، شرع بن لادن فى طرح قضيته الكبرى بدءا من رفض استمرار بقاء الجيش الأمريكى فى المملكة، ومرورا بتوسيع دائرة الهجوم ومداه. ومن الجلى أن قضية بن لادن، ومطالبه قد لاقت رواجا كبيرا على امتداد العالم الإسلامى فى أعقاب أحداث الحادى عشر من أيلول/سبتمبر، التى أدت وقائعها إلى الدعوة "لحرب عالمية ضد الإرهاب"، مما أشعل الرغبة لدى المحبطين والمهووسين لاعتماد آليات الإرهاب والتفجيرات الانتحارية. ولا يرتبط كل ما سبق "بالإسلام" فى شىء سوى فى نبرة

البلاغة الخطابية، بل يرتبط ارتباطا وثيقا بالاعتبارات الجيوبوليتيكية، والمنظور ذى الطابع القومى للمصالح السعودية والإسلامية.

ولكن تلك هى لغة تنظيم "القاعدة" – المنظمة الجهادية المتطرفة التى تفتقر مرجعيتها الدينية إلى شرعية المؤسسات المعترف بها. فإذا ما نظرنا إلى مؤسسة دينية كبيرة تحظى بدرجة عالية من الشرعية والقبول العام –مجمع البحوث الإسلامية بجامعة الأزهر بالقاهرة –، نجد أنه عشية الاعتداءات الأمريكية على العراق فى الحادى عشر من آذار/مارس عام ٢٠٠٣، أصدر المجمع بياناً كان له قوة الفتوى الملزمة :

يدعو المجمع كل المسلمين لتوحيد الصف والجهود، والتضامن فى مواجهة تلك الحروب العدوانية غير الشرعية على العراق ... فى ظل ما يحيط بعالمنا العربى والإسلامى من نذر العار والشر التى تمثلها الحشود العسكرية مدججة بأقوى آلات الدمار وأخطرها. وقد أيقن مجمع البحوث الإسلامية بالأزهر الشريف أن أمتنا العربية والإسلامية بل وعقيدتنا الدينية (الإسلام) هى هدف أساسى لكل هذه الحشود العسكرية التى تستهدف ملايين البشر من أمتنا، وتستهدف كذلك عقيدتنا ومقدساتنا كافة، وكل ما يملكه عالم العرب والمسلمين من مصدر الثروة والقوة، متمثلا هذا كله فى مرحلته الأولى ضرب العراق، واحتلال أرضه وامتلاك ثروته الوفيرة من النفط ... ويحيى المجمع ويبارك الموقف الداعم لرفض ضرب العراق ، وضرورة استخدام الوسائل السلمية فى حل الأزمة ... وفى ضوء ما سبق يعتقد الجميع أن العدوان على العراق واقع لا محالة، وهنا، وبمنطق، شريعة الإسلام أنه إذا نزل العدو فى أرض المسلمين فستكون أمتنا العربية والمسلمة أمام غزوة صليبية جديدة تستهدف الأرض، والعرض، والعقيدة، والوطن ... ويكون "الجهاد" وقتها فرض عين على كل مسلم. وبناء عليه، فإن مجمع البحوث الإسلامية بالأزهر الشريف يدعو العرب والمسلمين فى كل أنحاء العالم أن يكونوا على استعداد للدفاع عن أنفسهم وعقيدتهم، وأن يعتصموا بحبل الله جميعا ولا يتفرقوا، ويكونوا فوق ما

يحيطهم من خلافات حتى يقضى الله أمرا كان مفعولا. ويدعو المجمع جميع العرب والمسلمين فى كل أنحاء العالم ألا يهنوا وألا يضعفوا أمام هذا العدوان، لأن الحق تبارك وتعالى متكفل بنصرة دينه، وإظهاره على الدين كله.

وفى تشرين الثانى/نوفمبر ٢٠٠٤، أصدر ستة وعشرون من العلماء وأساتذة الجامعة المشهورين بالمملكة العربية السعودية فتوى تدين الحرب على العراق. فبعد مباحثات تناولت الحاجة إلى البحث أولا عن آليات لإحلال السلام، أعلن بيانهم :

لا شك فى وجوب جهاد المحتلين على ذوى القدرة، لأنه من جهاد الدفع، وبابه دفع الصائل، ولا يشترط له ما يشترط لجهاد المبادأة والطلب، ولا يلزم له وجود قيادة عامة، وإنما يعمل فى ذلك بقدر المستطاع. إن هؤلاء المحتلين هم، ولا شك، من المحاربين المعتدين الذين اتفقت الشرائع على قتالهم حتى يخرجوا أذلة صاغرين بإذن الله، كما أن القوانين الأرضية تضمنت الاعتراف بحق الشعوب فى مقاومتهم، وأصل الإذن بالجهاد هو لمثل هذا، كما قال -سبحانه- : "أذن للذين يقاتلون بأنهم ظلموا وإن الله على نصرهم لقدير" (سورة الحج، آية ٣٩). وقد قرر -سبحانه- سنة التدافع التى بها حفظ الحياة وإقامة العدل وضبط الشريعة، فقال : "ولولا دفع الله الناس بعضهم ببعض لهدمت صوامع وبيع وصلوات ومساجد يذكر فيها اسم الله كثيرا ولينصرن الله من ينصره إن الله لقوى عزيز" (سورة الحج، آية ٤٠). فالمقاومة، إذاً، حق مشروع، بل واجب شرعى يلزم الشعب العراقى الدفاع عن نفسه، وعرضه، وأرضه، ونفطه، وحاضره، ومستقبله ضد التحالف الاستعمارى، كما قاوم الاستعمار البريطانى من قبل.

بل لقد أصدر الإمام الشيعى آية الله السيستانى، المتسم بالطابع الحذر المحافظ، أحكاما تنص على شرعية مقاتلة القوات الأمريكية فى العراق من منطلق الدفاع عن الذات ... كان هذا غيضاً من فيض الأحكام والفتاوى المتعددة التى جاءت كردات فعل غاضبة تجاه تلك الحرب، والتى مهدت لأحكام قانونية مدروسة

للظروف التى يكون بمقتضاها الجهاد، ومن ثم الحرب - مشروعاً. إن مقاومة أى معتد فى أى مكان هو أمر طبيعى ومشروع، فإذا ما أحيطت تلك المقاومة بصبغة شرعية إسلامية لعزز ذلك كثيرا من موقف المدافع.

دوافــــع الإرهـــــاب

إن الممارسات الإرهابية والأعمال الانتحارية قد اعتمدت كمصطلحات وفدت على لغة الغرب المستخدمة لوصف أفعال المسلمين فى إطار الحروب. ومن قبل، فقد عرفت الولايات المتحدة الأمريكية مهام فرق "الكاميكازى" اليابانية ضد غواصاتها البحرية إبان الحرب الكونية الثانية. إن القول بأن "الإرهاب هو سلاح الضعفاء" يظل حقيقة بدهية، فقد صرح الشيخ/أحمد ياسين - الزعيم الأسبق لحركة "حماس" أنه لو كان بمقدور الفلسطينيين امتلاك مقاتلات جوية، وقاذفات قنابل واسعة المدى، لكانت تلك الأسلحة موضعا للاختيار. أما القوات البريطانية فى أمريكا الشمالية إبان حروب التحرير، فقد أدانت القوى الأمريكية غير النظامية لقيامها بأعمال غير قانونية إذ انخرطت فى حروب عصابات بدلا من المواجهة المباشرة للقوى والتشكيلات البريطانية المتفوقة عليها. لذا، فإن الولايات المتحدة الأمريكية تسعى اليوم لأن تحصر مفهوم "الحرب" فى العمليات العسكرية النمطية والمعيارية، والتى من الجلى امتلاكها لناصيتها. وفى الوقت ذاته فهى تشجب تلك العمليات غير النظامية التى تجعل القوة الإسلامية غير أخلاقية أو جبانة. (وبالرغم من أن المرء بإمكانه أن يدين من يقوم بالتفجيرات الانتحارية بالعديد من الأوزار، إلا أنه يصعب أن يكون "الجبن" إحداها).

فهل تكمن المشكلة، أساسا، فى الإسلام؟ أم توجد جذور سياسية واجتماعية لتلك المشاكل تتطلب المزيد من التناول والتحليل؟ ومن الجلى أن هذا الكتاب يناقش كون المشكلة لا تكمن فى "الإسلام" بالأساس، وإنما تكمن فى الإرث الجيوبوليتيكى والاجتماعى الذى يمس المسلمين ... أولئك الذين يلجأون بالفعل إلى "سلاح

الضعفاء". إن العمليات الإرهابية لها تاريخ تليد عبر مختلف الأزمنة والبقاع، إلا أن القرن العشرين قد شهد بعض النماذج الصارخة لتلك العمليات مثل : الجبهة الوطنية لتحرير فيتنام الجنوبية، ومنظمة "إيتا" الانفصالية الساعية لتحرير إقليم الباسك من السيطرة الإسبانية عليه، و"الدرب المضيء" فى بيرو، و"حزب العمال الكردستانى" (وهو منظمة كردية فى تركيا)، وحركة "مجاهدى خلق" (وهى جماعة إيرانية مناهضة للجمهورية الإسلامية هناك)، ونمور التاميل فى سريلانكا، والسيخ فى الهند، والحزب الشيوعى فى الهند أيضا، وكذلك حركة ناكسال فى الهند، و"الجيش الجمهورى الأيرلندى" فى أيرلندا، وحزب "كاخ" اليمينى المتطرف فى إسرائيل، و"الألوية الحمراء"، و"أوم شينريكيو" أى الدين الحق - فى اليابان، و"القوات المسلحة الثورية لجيش كولومبيا" فى كولومبيا، ... وغيرها. وقد شهدت العقود الأخيرة تزايدا ملحوظا فى أعداد المنظمات الإسلامية مع ما استجد من مواجهات تجاه الغرب.

إذاً، فمن أجل أى مبدأ نقوم بالتضحية بأنفسنا؟ وهل الظروف المصاحبة لتلك التضحية تصبغ عليها معنى أسمى؟ فالتضحية بالنفس من أجل الآخرين - العائلة، العشيرة، القبيلة، الأمة - وأن يضحى المرء بحياته من أجل خالقه ... تلك قضايا عولجت وفق أكبر قدر من الحرمة، والقداسة، والتبجيل، والتضامن الجمعى. فالموت، وخاصة الموت الوحشى، يتطلب معنى ومسوغا. فالناجون والأحياء يتلمسون عزاء وتفسيرا ... بعضا من معنى أو هدف لذلك الغياب المبكر الذى حدث باختيار المرء ذاته. وماذا عن طبيعة عملية القتل ذاتها؟ وما الظروف التى يمكن لنا بموجبها تبرير إزهاق الروح؟ إن الإجابة عن تلك الأسئلة الأخلاقية ذات العمق تتجدد بتجدد الملابسات والظروف فى كل عصر لأى من طرفى النزاع. وغالبا ما يخلع عليها أرفع المصطلحات الأخلاقية الممكنة وأسماها - المعتقدات الدينية لثقافة ما.

وتجرى مناقشة الدوافع لزمن ليس بالقصير. فلاشك أن مجتمعات الشرق الأوسط تعد أقل تقدما بالقياس بغيرها، وذلك فى مناح شتى. فالمستوى التعليمى،

ومستويات المعيشة، وفرص التوظف عادة ما تكون غير متاحة بالنسبة للسواد الأعظم من المواطنين باستثناء عدد قليل من "النخب النفطية"، وبلدان الخليج العربى الثرية ذات الكثافة السكانية المنخفضة. لذا، تبدو آفاق المستقبل محدودة وغير واعدة. كذلك، فإن سوء الإدارة هى السمة الغالبة على تلك البلدان، فليس هناك ما يفوقها سوءا إلا البلدان الإفريقية. إلا أن الحقيقة الكبرى أن تلك الظروف قد صبغت إقليم الشرق الأوسط لأزمنة طوال، بالتزامن مع الإسلام على مدى أربعة عشر قرنا. بيد أن الزيادة المطردة الهائلة فى العنف، والإرهاب، والتفجيرات الانتحارية تعتبر حديثة للغاية، وترتبط مباشرة بحقبة اتسمت بسياسات تدخلية أوروبية وأمريكية بالغة فى الشرق الأوسط. فحتى لو كانت ثقافة العالم الإسلامى، بحد ذاتها، ثقافة مهيأة لممارسة العنف والوحشية بأكثر من أية ثقافات مجتمعية أخرى – وهو افتراض محل نظر –، فإننا ما زلنا بحاجة إلى تفسير شاف للزيادة المطردة فى أعمال العنف فى الشرق الأوسط فى ظل الظروف الراهنة.

وللأسف فقد اعتدنا جميعا، فى العقد الأخير أو نحوه، عالما يزخر بالعنف، والإرهاب، والتفجيرات الانتحارية – إلى الحد الذى شعرنا معه أن ذلك هو النمط الاعتيادى للحرب الإسلامية. بيد أنها، وعلى خلاف هذا، تمثل عوامل جديدة طرأت على المشهد الاستراتيجى. إن الإرهاب والأعمال التفجيرية تكاد تكون أمرا غير مألوف قبل خمسة وعشرين عاما أو نحوها. فلم يكن يسمع بالتفجيرات الانتحارية فى العالم الإسلامى منذ خمسينيات القرن العشرين وحتى سبعينياته، حتى فى ذروة اتقاد الحماسة الثورية للقومية العربية، والهزيمة المروعة التى منى بها العرب فى حرب حزيران/يونيو ١٩٦٧ مع إسرائيل. لقد نفذ الفلسطينيون أعمالا إرهابية ضد إسرائيل، بيد أنها لم تكن أبدا مهاما انتحارية. لقد كان شيعة لبنان أول من اعتمد التفجيرات الانتحارية بنجاح هناك، وما خلفته من آثار مروعة بحق الأهداف الأمريكية المستهدفة – السفارة الأمريكية فى بيروت وثكنات الأسطول الأمريكى، وذلك فى بدايات ثمانينيات القرن العشرين. أما نمور التاميل الهندوس فى

سريلانكا، فقد كانوا أول من اعتمد الاستخدام المنظم للسترة الانتحارية فى الفترة ذاتها، والتى أدت إلى أحد أعلى معدلات الأعمال الانتحارية خلال تلك الحقبة. ومنذ ذلك الحين فصاعدا، ارتفعت معدلات التفجيرات الانتحارية فى الشرق الأوسط على نحو رهيب، خاصة بعد الغزو الأمريكى للعراق وأفغانستان.

ففى عام ٢٠٠٧ وحده، والذى شهد أعلى معدلات تلك التفجيرات، كان ثمة ٦٥٨ هجوما انتحاريا، منها ٥٤٢ هجوما فى أفغانستان والعراق المحتلين، وذلك وفقا للإحصائيات الحكومية الأمريكية. ويفوق ذلك ضعف عدد الهجمات خلال أى من سنوات ربع القرن الفائت. وفضلا عن ذلك، فإن أكثر من أربعة أخماس تلك التفجيرات الانتحارية قد وقع فى السنوات السبع الماضية فحسب، فى حين نشهد حاليا ذيوع تلك الظاهرة واستشراءها على امتداد العالم بأسره. ولقد أوردت "الواشنطن بوست"، فى عددها المؤرخ ١٨ نيسان/أبريل ٢٠٠٨، أنه "بدءا من عام ١٩٨٣، فإن المفجرين المنتمين لأكثر من خمسين جماعة فيما بين الأرجنتين والجزائر، وكرواتيا والصين، والهند وإندونيسيا - قد استخدموا متفجرات السيارات لعمل الأحزمة المتفجرة، وكذا السترات، والألعاب، والدراجات، والدراجات البخارية، وحقائب الأمتعة المفخخة، والبطون الحبلى الزائفة ... وتستخدم كلها للتفجير . فمن بين ١٨٤٠ حادث خلال ربع القرن المنصرم، وقع أكثر مما نسبته ٨٦٪ منها بدءا من عام ٢٠٠١، أما أعلى الأرقام السنوية فقد وقعت خلال الأعوام الأربعة الفائتة".

وتوجد العديد من النظريات التى تذهب إلى بحث أسباب تلك الزيادة الهائلة التى شهدتها معدلات التفجيرات الانتحارية، وتقدم معظم تلك النظريات ملمحاً أيديولوجياً أو آخر لطبيعة الصراع. ويؤمن بعض المحللين أن الدوافع الدينية تأتى فى صدارة الدوافع : الرغبة فى الدفاع عن "الأمة"، وعن العالم الإسلامى، والتضحية بالنفس فى سبيل الإسلام، وللخلود فى الجنان. بينما يذهب محللون آخرون إلى وجود اضطرابات نفسية تدفع بالمرء للإقدام على الانتحار ... فالمرء

الذى ينتحر، وفقا لهم، غير كامل الأهلية. فى الوقت الذى تذهب فيه فئة ثالثة إلى أن مشاعر الإحباط الناجمة عن تردى الأحوال الاقتصادية والاجتماعية للمرء تدفعه بشدة لارتكاب ذلك الفعل غير المسئول. أما "روبرت بيب"، من جامعة شيكاغو، فيذهب إلى أن معظم تلك الممارسات تأتى كاستجابة مباشرة وردة فعل ضد الاحتلال الأجنبى، والرغبة فى تحرير الوطن من الغزاة. إلا أن آخرين، من أمثال "مارك سيجمان"، يقرون فى تنويعات على اللحن ذاته بأن الاستثارة القومية والثقافية هى المحرك، بيد أن عملية الانخراط الفعلى فى الممارسة على المستوى الفردى تجد وقودها فى التأثير البالغ لفكر الجماعة المحيطة بالمرء - جماعة من الأصدقاء أو أعضاء أحد التجمعات المتاخمة ... الذين يقررون، على نحو جماعى، التطوع معا للدفاع عن القضية والتضحية بالنفس دونها.

لذا، فإن الدوافع تعد أمرا هاما إذ تشتمل، فى طياتها، على علاج لها. فقد حاولت الولايات المتحدة الأمريكية أن تلتجئ إلى تفسيرات معانى "القرآن" وتأويلاتها كى تثبت للمتمردين العصاة بطلان ممارساتهم وعدم مشروعيتها وفقاً للنصوص الدينية، أو بالأحرى كونها "لا إسلامية". كذلك، فقد دعت واشنطن العديد من رجالات الدين الإسلامى للاجتماع لشجب الإرهاب الممارس تحت ستار الدين وباسمه. وبالفعل، فقد استجاب عدد كبير من العلماء لتلك الدعوات وقاموا بالشجب والتنديد. بيد أنه، وللأسف، فإن حل المعضلة لا يكمن فى مواجهة مرتكبى تلك الجرائم بالتأويل السليم للنصوص الدينية، على هذا النحو المبسط الساذج. وفضلا عن ذلك، فإنه من المستبعد أن تكون أية سلطة إسلامية يتم الاستعانة بها قادرة على إخماد حروب العصابات الوحشية الرافضة لتلك السياسات المقيتة ... تلك الحروب الموجهة ضد قوى الاحتلال الأمريكى. ولقد أصدر كبار "العلماء" فى المملكة العربية السعودية ومصر بيانات وفتاوى عديدة تندد بالممارسات الوحشية لتنظيم "القاعدة"، وغيره من التنظيمات المتطرفة. كذلك، فقد تم استتابة بعض السجناء الذين " أدركوا فداحة الخطأ والجرم الذى اقترفوه" ... تلا ذلك قيامهم بالتبرؤ من

ارتباطاتهم وممارساتهم الوحشية السابقة.

وفى حين أنه من الممكن، بمرور الزمن، أن يتم إقناع بعض الراديكاليين بمدى ما اجترحوا من إثم، وذلك على أيدى رجال الدين، إلا أن السجون تمثل قنوات أكثر إقناعا لتبرؤ السجناء من أفعالهم السابقة، وهو ما يثير الشكوك حول مدى جدية عزم السجناء على التوبة والإقلاع عما سلف. إن معظم كبار علماء الدين فى المملكة العربية السعودية ومصر يتم النظر إليهم باعتبارهم "تابعين" يدينون بالولاء للنظام السياسى بما يتواءم ورؤية ذلك الأخير، وقلقه من تنامى تلك الأيديولوجيات الراديكالية. لذا، فإن عدد علماء الدين الوسطيين، والمتسمين بالنزاهة والموضوعية ممن يقدرون، بالفعل، على مخاطبة عقول أولئك الراديكاليين الشباب وإقناعهم، يبقى محدودا.

إن معظم الشباب يصبحون راديكاليين نظرا لطبيعة ما يشهدونه فى واقع حياتهم : الغزو الأجنبى، قتل الأمريكيين للكثير من المدنيين، القوى العسكرية الغربية والإسرائيلية، شعور بالمذلة، والمهانة، والانكسار، تعطش إلى الأخذ بالثأر والانتقام ... ويكون هذا الانتقام فى بعض الحالات لأناس من عائلاتهم ذاتها قد قتلوا. تلك قضايا واقعية تجرى أحداثها ولا ترتبط بالضرورة بالأيديولوجية الإسلامية. فإذا لم يُشاهَد حدث معين حين وقوعه بالفعل، فتتم مشاهدته عبر شاشات التلفاز. فالراديكالى العازم على استخدام العنف لن يعوقه أو يثنيه عن عزمه سماعه لموعظة أو خطبة مفادها أن الإسلام لا يؤيد التفجيرات الانتحارية أو قتل المدنيين. فالمرء النازع نحو الانتقام والقصاص بسبب الهجمات، الفعلية والمتخيلة، ضد عائلته، أو جماعته، أو دينه سوف يسعى جاهدا لقتل الأعداء. وسيقوم ذلك المرء بالتنقل ما بين بديل ثيولوجى وآخر، وفتوى دينية وأخرى إلى أن يصادف بديلا أو فتوى تتيح له رخصة وسلطة تنفيس غضبه الإجرامى. إذاً، تأتى الثورة أولا، ثم يتبعها التبرير الثيولوجى، وهو تعزيز أخلاقى لدعم ممارسة قد تقرر سلفاً إنفاذها. وفى هذا الإطار، سيكون من العسير تماما أن نجد أية ما فى

"القرآن" تقنع العقول المتعطشة للانتقام، أو تعمل فجأة على تحرير العقول المتحجرة، أو تلين "قناة الغضب"، أو تلطف مشاعر الاستياء وعدم الرضا. إذاً، تسبق الجوارح العقل. وفضلا عن ذلك، فإن النصوص المقدسة فى معظم الأديان تحتوى آيات عديدة، يمكن أن يتم نزعها من سياقها واستخدامها لتأييد الأفعال الوحشية، بغض الطرف عن ماهية ذلك الدين وثقله وفحوى رسالته.

كذلك، فإن عمليات غسيل الأدمغة التى تمارسها السلطات فى البلدان الإسلامية لا تغير، بالضرورة، من الآراء ووجهات النظر المتبناة. فالطلبة من الشيعة فى مدارس المملكة العربية السعودية يتم إجبارهم على استخدام كتب تحط من قدر المذهب الشيعى. بيد أن الشيعة هناك يقولون إن أبناءهم يعرفون كيف يتجنبون الحرج، ويتخلصون بالضحك من تلك الرسائل الموجهة فى مدارسهم. وبالمثل، وفى مجتمعات شمولية كالاتحاد السوفييتى السابق، كانت أعداد كبيرة من السكان تعلم أن الدعاية التى تقوم بتوزيعها وسائط الإعلام التابعة للحكومة باطلة، كما كانت تسقط تلك الأفكار تماما عن أذهانها، وذلك على نحو ممنهج، حتى لو قامت بالمداهنة بإظهار اعتناقها لها بين جمهور العامة. وبعبارة موجزة، فإن قيام المدارس من خلال نصوص الكتب بها، أو تصريح أنظمة المعلومات بمزاعم وادعاءات معينة لا يعنى قبول تلك الرسائل من قبل المجتمعات المتسمة بالتشكك والحذر.

إن الكثير من المسلمين المعتدلين يرفضون التأويلات والتبريرات الدينية المقدمة من قبل تنظيم "القاعدة" عن ممارساته الدموية. بيد أنهم يدركون، أيضا، أن الأجواء ليست آمنة بالنسبة للعالم الإسلامى، وأن الاستسلام والإذعان للغرب لا يعد بديلا كذلك. كما أنهم قد يمقتون تلك الممارسات، بيد أنهم يرونها الاستجابة الوحيدة الممكنة، "سلاح الضعفاء". إن المجتمعات المسلمة قد تأسف كثيرا لتلك الأفعال الوحشية، كما قد تخشى ضلوع أبنائها بها، لكنها تجد أنه من المفهوم حدوث تلك الأمور فى ظل الأحوال الراهنة، ومن ثم يصعب إدانة من أتى بتلك الأفعال كردة فعل للأحداث. إن الإذعان المجتمعى لردات الفعل العنيفة تلك يبدو،

على أدنى تقدير، عاملا هاما فى تمديد ظاهرة الممارسات الإرهابية بقدر وجود القائمين بالعنف أنفسهم.

إن المجتمعات تدافع عن نفسها، ووفقا لرؤية بذاتها فإن الأمر هو ذاك بالفعل، رغم البساطة الظاهرة. فالإدارة الأمريكية برئاسة جورج بوش الابن قد زعمت أنها كانت تحاول فقط الدفاع عن نفسها، بأن "تقتل الإرهابيين فى العراق، قبل أن يباغتونا فى عقر دارنا". بيد أن معظم المعارك، والحروب، والسجال بين القوى تجرى وقائعها على أراض إسلامية فى ظل هجمات القوى الخارجية وانتهاكاتها، كما استمرت تلك الحروب لآماد طوال. لذا، فإنه عند الحديث عن قضية الدفاع، يبدو الأمر أكثر ملاءمة وانطباقا على المسلمين عنه على الولايات المتحدة، وما للأخيرة من يد طولى تنشر قواتها بموجبها على امتداد العالم بأسره.

إن الدين سيتم التوسل به على الدوام، وفى أى مكان لاجتذاب العامة واستقطابهم، ولتسويغ الحملات والمعارك والحروب الكبيرة، وبخاصة فى الثقافات التوحيدية. بيد أن المطالب، والحملات، والمعارك، والحروب لا ترتبط بالدين. فإذا ما أبعدنا عنصر الدين عن المعادلة، فسيظل هناك مطالب، وحملات، ومعارك، وحروب.